أقطاب الرواية المصرية

عن الملك المسبحي

فني ومؤرخ وسياسي

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كان المسبحي رجل حرب ورجل قلم ؛ وكان سليل أسرة حرّانيـة [1] نزحت إلى مصر قبل قيام الدولة الفاطمية ، واستوطنت مصر وسطعت فيها ؛ وكان احدى هاته الشخصيات القوية البارزة التي كانت الدولة الفاطمية ابان قوتهـا وفتوتها تحشدها حولها ، وتوليها ثقتها وعطفها ، وتؤثر أن تختارها من غير المصريين البلديين . بيد أن المسبحي كان مصرياً بمولده ، مصرياً بتربيته وبيئته ، وقد خصص حياته ومواهبه الممتازة لدراسة مصر وأحوالها وتاريخها ؛ ولو لم يذهب الزمن بآثاره ولا سيما بموسوعته الضخمة عن تاريخ مصر ، لكان بين يدينا الآن أعظم أثر عن مصر وتاريخها في المرحلة الأولى من الحكم الفاطمي ، أعني مرحلة العظمة والبهاء

ولد المسبحي بمصر حسبما ذكر في تاريخه ونقل الينا الرواة المتأخرون في العاشر من رجب سنة ست وستين وثلثمائة (٩٧٧ م) [2] ؛ وهو الأمير المختار عز الملك محمد بن عبد الله ابن احمد بن اسماعيل المعروف بالمسبحي ؛ ولم نعثر على تفاصيل عن حياته الأولى ولا عن تربيته وتكوينه ، ولكن يبدو لنا من آثاره التي نسبت اليه ، والتي انتهت الينا شذور منها أنه تلقى ثقافة أدبية علمية واسعة متعددة النواحي ، كذلك يظهر أن المسبحي بدأ حياته العامة جندياً ورجل ادارة ، لأنه كان يرتدي زي الجند ، ولأنه تقلد بعض المناصب الادارية الهامة ؛ وقد ذكر لنا المسبحي في تاريخه أيضاً ، أن اتصاله بخدمة الحاكم بأمر الله يرجع إلى سنة ٣٩٨ هـ ؛ بيد أنه تقلب قبل ذلك في بعض الوظائف الهامة ، فتقلد أعمال القيس والبهنسا من أعمال الصعيد ، ثم تولى ديوان الترتيب [1] وهو يومئذ من مناصب الوزارة الهامة ، ثم اصطفاه الحاكم بأمر الله وعينه في بطانته الشخصية في سنة ٣٩٨ هـ . وكان الحاكم يومئذ فتى في نحو الثالثة والعشرين من عمره ؛ ولكنه كان في ذروة القوة والسلطان والبطش ، وكانت هذه الفترة بالذات من أروع فترات حكمه ، وفيها فتك بكثير من الوزراء ورجال الدولة (سنة ٣٩٥ — ٤٠٠ هـ) ويروى لنا المسبحي نفسه في تاريخه طائفة من الحوادث الدموية التي شهدها في هذا العهد [2] ؛ وكان الحاكم دائم الفتك بالزعماء والكبراء لأسباب تتصل بسياسته العامة أو لريب ومخاوف تساوره ، ولكن المسبحي تبوأ لدى الحاكم مركزاً من النفوذ والثقة لا تتطاول اليه الشكوك والريب ، ولا تتجه اليه النقمة الغادرة ، بل يظهر أن المسبحي كان من أخص خواص الحاكم ، حسبما تدلي به الواقعة الآتية التي يرويها لنا في تاريخه ، قال :

« قال لي الحاكم ، وقد جرى ذكر والده العزيز : يا مختار ، استدعاني والدي قبل موته ، وهو عاري الجسم ، وعليه الخرق والضماد ، قال فاستدعاني وقبلني وضمني اليه وقال : واغمّي عليك يا حبيب قلبي ! ودمعت عيناه ، ثم قال : امض يا سيدي فالعب فأنا في عافية . قال الحاكم : فمضيت وانتهيت بما يلتهي به الصبيان من اللعب إلى أن نقل الله تعالى العزيز اليه » [3]

ويقول لنا ابن خلكان إن المسبحي نال لدى الحاكم حظوة وسعادة ، وإنه كانت له مع الحاكم مجالس ومحاضرات حسبما يشهد بها تاريخه الكبير [4] ، وتبدو دلائل هذه الصداقة التي توثقت عراها بين الحاكم والمسبحي في كثير مما يرويه المؤرخ في تاريخه وينقله عنه الكتاب المتأخرون مثل المقريزي وابن تغرى بردى عن عصر الحاكم بأمر الله ، وعن أحواله وتصرفاته الشخصية ، ففي كثير من هذه المواطن يبدو المسبحي الصديق المخلص والمستشار الأمين

---

(١) نسبة إلى حران ، وهي مدينة قديمة كانت تقع بين الموصل والشام على مقربة من الرها

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٦٥٤

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٦٥٣

(٢) نقله المقريزي عن المسبحي في الخطط (الطبعة الأهلية) ج ٣ ص ٣٢ و ٣٣

(٣) نقله ابن تغرى بردى في النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٢٤

(٤) ابن خلكان ج ١ ص ٦٥٣

وهذه حقيقة تلفت النظر ، فان الحاكم كان أميراً خطر النزعات عنيف الأهواء ، وقلما نجا من نقمته أحد من رجال الدولة الذين خدموه . بيد أن الذهبي يقدم الينا فى تاريخه تعليلا لهذه الظاهرة ، هو أن المسبحى كان رافضياً [1] . والروافض فرقة من غلاة الشيعة تغلو فى حب على بن أبي طالب وفى بغض أبي بكر وعثمان ومعاوية ومن اليهم ، وقد اختلف فى سبب تسميتهم بالروافض . وهنا نلمس سر هذه الصداقة التى توثقت بين المؤرخ وأميره ، فقد كان الحاكم ، جرياً على سنة آبائه ، يصطفى غلاة الشيعة أبناء مذهبه ويوليهم مناصب النفوذ والثقة ، وكان المسبحى يتمتع فوق صفته المذهبية بخلال باهرة تضاعف مكانته ، فقد كان عارفاً بعلوم عصره ، وكان راوية ومحدثاً ساحراً ، وكان أيضاً شغوفاً بعلم النجوم الذى يشغف به الحاكم بأمر الله ، وقد وضع فيه أكثر من مؤلف [2] ؛ وهذه كلها عوامل وظروف تلقى أكبر الضياء على طبيعة هذه الحظوة التى نالها المؤرخ فى بلاط الحاكم بأمر الله .

وقد استطالت هذه الحظوة حتى وفاة الحاكم بأمر الله سنة ٤١١ هـ ؛ ولا نعرف ماذا كانت صلة المسبحى بالبلاط الفاطمى فى الأعوام التالية ، والظاهر أنه اعتزل الحياة العامة ، وانقطع للبحث والكتابة ، ووضع كثيراً من مؤلفاته فى هذه الفترة التى استطالت تسعة أعوام أخرى حتى وفاته فى شهر ربيع الثانى سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م)

— ٢ —

يقدم إلينا ابن خلكان ثبتاً حافلاً من مصنفات المسبحى ، وفى هذا الثبت القوى المتباين مما يدل على ما كان يتمتع به هذا الذهن الممتاز من نواحى التفكير والثقافة المتعددة ، فقد ألف للمسبحى فى التاريخ والجغرافيا والأدب والاجتماع والفلك كتباً بل موسوعات ضخمة ، واليك مفردات هذا الثبت الذى يقدمه الينا ابن خلكان : كتاب التاريخ الكبير فى ثلاث عشرة ألف ورقة ، كتاب التلويح والتصريح فى معانى الشعر وغيره فى ألف ورقة ، كتاب الراح والارتياح فى ألف وخمسمائة ورقة ، كتاب الغرق والشرق فى ذكر من مات غرقاً وشرقاً فى مائتى ورقة ، كتاب الطعام والادام فى ألف ورقة ، كتاب درك البغية فى وصف الأديار والعبادات ثلاث آلاف وخمسمائة ورقة ، قصص الأنبياء عليهم السلام وأحوالهم ألف وخمسمائة ورقة ، كتاب الفاتحة والمناكحة فى أصناف الجماع ألف ومائتا ورقة ، كتاب الأمثلة للدول المقبلة وهو فى النجوم والحساب خمسمائة ورقة ، كتاب القضايا الصائبة فى معانى أحكام النجوم ثلاث آلاف ورقة ، كتاب جونة الماشطة فى غرائب الأخبار والأشعار والنوادر ألف وخمسمائة ورقة ، كتاب للشجن فى أخبار أهل الهوى وما يلقاه أربابه ألفان وخمسمائة ورقة ؛ كتاب البؤال والجواب ثلثمائة ورقة ؛ وكتاب مختار الأغانى ومعانيها ؛ وغير ذلك من الكتب ؛ ويقول لنا ابن خلكان أيضاً إن مصنفات المسبحى بلغت نحو الثلاثين [1]

وهو تراث حافل ضخم ينم عن غزارة مدهشة ، ويشهد من حيث تنوعه لصاحبه بطرافة يندر توفرها فى آداب هذا العصر ؛ بيد أننا لم نتلق من هذا التراث شيئاً يذكر ، ولا نكاد نظفر فى عصرنا للمسبحى بأثر تام أو فصل تام ، وقد اشتهر المسبحى بالأخص بتاريخه الكبير ، الذى يصف لنا محتوياته فى مقدمته فيما يلى : « هو أخبار مصر ومن حلها من الولاة والأمراء والأئمة والخلفاء ، وما بها من العجائب والأبنية واختلاف أصناف الأطعمة ، وذكر نيلها ، وأحوال من حل بها إلى الوقت الذى كتب فيه ، وأشعار الشعراء ، وأخبار المغنين ، ومجالس القضاة والحكام والعدلين والأدباء والمتفرجين وغيرهم » [2] ، وإذن فقد كان تاريخ المسبحى ، سواء من حيث حجمه أو موضوعاته موسوعة قوية شاسعة ؛ ولم يصلنا هذا الأثر الضخم الذى باق بلا ريب أعظم الضياء على تاريخ الدولة الفاطمية فى عصرها الأول ، ولا سيما عصر الحاكم بأمر الله ، وشخصيته الغريبة الفذة التى درسها المسبحى عن كثب ؛ ولكن الشذور القوية المتعة التى وصلتنا منه على يد المقريزى وغيره من المؤرخين المتأخرين عن أحوال الدولة الفاطمية وقصورها وخزائنها وصروحها

(١) راجع السيوطى — حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٦٥

(٢) ابن خلكان — ج ٢ ص ٦٥٣ — حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٦٥

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٦٥٣

(٢) » » » » »

وبذخها وبهائها ، تنوه بقيمة هذا الأثر ونفاسته وطرافته ، وتدل أيضاً على أن مؤلفه قد تناول خطط مصر وآثارها ومعاهدها فى كثير من الاقاضة

وقد لبث تاريخ المسبحى مستقى خصباً لمؤرخى مصر الاسلامية حتى عصر متأخر جداً ؛ فالمقريزى وابن تغرى بردى والسخاوى والسيوطى وغيرهم يقتبسون منه ويشيرون إلى وجوده ؛ وكذلك يذكره حاجى خليفة فى « كشف الظنون » بما يأتى : « ومنها تاريخ مصر لعز الملك محمد بن عبد الله المسبحى الحرانى المتوفى سنة ٤٢٠ هـ ، وهو كبير فى اثنى عشر مجلداً ؛ واختصره تقى الدين الفاسى والذيل عليه لابن مُيَسَّر » (١) ؛ وفى ذلك مايدلى بأن تاريخ المسبحى كان موجوداً حتى القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) ؛ بل هنالك ما يدل على أنه كان موجوداً كله أو بعضه حتى القرن الثانى عشر (الثامن عشر) ؛ فقد ورد فى معجم مخطوطات الأسكوريال الذى وضعه الغزيرى اللبنانى (Casiri) باللاتينية فى سنة ١٧٧٠ بأنه يوجد فى مكتبة الأسكوريال العربية (أربعة مجلدات من تاريخ مصر وأرضها وعجائبها مرتب حسب السنين لغاية سنة ٤١٤ هـ ، تصنيف محمد بن عبد الله بن عبد العزيز المسيحى (كذا) (Almisibi) (معجم الأسكوريال رقم ٥٣١ فقرة ٢) (٢) ، وليس من شك فى أن المقصود هو تاريخ مصر للمسبحى ، وذلك رغم تحريف الاسم . على أننا عند مراجعة فهرس الأسكوريال الحديث الذى وضعه ديرنبورج ، ثم ليفى بروفنسال (سنة ١٩٢٨) لم نجد فى كتب التاريخ ذكراً لكتاب المسبحى ، مما يدل على أن ما كان موجوداً منه بقصر الأسكوريال فى القرن الثامن عشر قد ضاع شأن كثير من الآثار التى أثبت الغزيرى وجودها فى معجمه

بيد أنه يبدو من هذا الوصف الذى أثبته الغزيرى فى معجمه أن المسبحى استمر فى تتبع حوادث مصر وحوادث عصره حتى سنة ٤١٤ هـ ، وربما استمر إلى ما قبيل وفاته فى سنة ٤٢٠ هـ إذا لم يكن الغزيرى قد وقف على نهاية كتابه . هذا وقد كتب ابن

(١) راجع كشف الظنون (طبعة فليجل) . ج ٢ ص ١٤٧ و ١٤٨

(٢) Casiri - Bibliotheca arabico - Hispana Escurialensis

ميسر المصرى المتوفى سنة ٦٧٧ هـ ذيلاً لتاريخ المسبحى ، يبدأ فيه من حيث انتهى المسبحى ، وسماه « أخبار مصر » ؛ وانتهى الينا منه قسم يبدأ فى سنة ٤٣٩ هـ وينتهى سنة ٥٥٣ هـ ، وهذا القسم هو الذى أشار اليه صاحب كشف الظنون فيما تقدم (١)

هذا وقد كان المسبحى شاعراً رقيقاً وله شعر جيد نقل الينا ابن خلكان شيئاً منه ، ومن قوله يرثى أم ولده :

ألا فى سبيل الله قلب تقطعا وفادحة لم تبق للعين مدمعا
أصيراً وقد حل الثرى من أوده فلله هم ما أشد وأوجعا
فيا ليتنى للموت قد مت قبلها وإلا فليت الموت أذهبنا معاً

وقوله من قصيدة يرثى بها والده

بأبى نجمت فأى ثكل مثله ثكل الأبوة فى الشباب أليم
قد كنت أجزع أن يلم به الردى أو يعتريه من الزمان هموم

وقد رأينا أن المسبحى كتب فيما كتب كتاب « التلويح والتصريح فى معانى الشعر وغيره » مما يدل على أنه كان راسخ القدم فى فنون الشعر رسوخه فى النثر

(النقل ممنوع) محمد عبد الله عنان

(١) ولقد نشر هذا القسم المستشرق الفرنسى هنرى ماسيه (راجع مقدمته الفرنسية فى شرح الصلة بين الكتابين)

ظهرت الطبعة الجديدة لكتاب

رفائيـــل

لشاعر الحب والجمال (لامرتين)

مترجمة بقلم

احمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر ومن « الرسالة »

والثمن ١٢ قرشاً